

الدولة والثورة « للينين »

بقلم : فؤاد شبل

١ - حياة لينين

ولد فلاديمير ايليتش أوليانوف (لينين) في ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٠ بمدينة سيمبريسك . وكان والده مفتشا للتعليم ووالدته ابنة أحد الأطباء . وعرف الوالوان بأرائهما التقدمية . وأنجبا عدة أطفال لم يعش منهم سوى خمسة ، وكان لينين أكبرهم سنا . واندمج جميع الأخوة في صفوف الثوار . من ذلك أن أخاه الكسندر أعدم شنقا وهو في التاسعة عشر عقابا له على اشتراكه في مؤامرة لاغتيال القيصر الكسندر الثاني في أول مارس سنة ١٨٨١ . وقد أثر اعدامه في نفسية لينين ، اذ أقنعه بقصور وسائل الارهابيين الروس الذين سعوا لكفالة الخلاص لبلدهم باستخدام القتل .

وبعدما اسنكمل لينين دراسته الثانوية بمدينة سيمبرسك ، توجه عام ١٨٨٧ الى مدينة قازان ليلتحق بجامعة لدراسة القانون . ودأب البوليس السياسي القيصرى على مراقبته ؛ لنشاطه المناهض للقيصر ، وبسبب اعدام أخيه . ولم تحل الرقابة بينه وبين الاتصال بالجماعات الثورية الروسية .

وطرد من الجامعة بعد انقضاء بضعة شهور على التحاقه بها بسبب اشتراكه فى اضرابات الطلبة واعتصاباتهم . وأجبرته الحكومة على الإقامة بقرية قريبة من قازان ، فرأى معيشة الفلاحين عيانا ولمس سوء أحوالهم . وأمضى الأعوام التالية يدرس الثانون بمفرده ، فأمكنه عام ١٨٩١ الحصول على درجته العلمية من جامعة بتروجراد (سانت بطرسبرج) . ولم يمتحن المحاماة الا لفترة وجيزة للغاية .

وظهرت باكورة مقالاته خلال عامى ١٨٩١ و ١٨٩٢ تبحث خاصة فى المشكلة الزراعية . وما لبث عام ١٨٩٣ أن اندمج فى أوساط عمال بتروجراد وشاركهم نشاطهم الثورى . وفى عام ١٨٩٤ ؛ نشر رسالة عنوانها « من هم أصدقاء الشعب وكيف يناهضون الديمقراطيين الاشتراكيين » . ويتبين للباحث من استقراء الرسالة أن لينين قد أصبح ماركسيا ؛ لا بالنسبة للاقتصاديات فحسب ، ولكن بالنسبة للفلسفة كذلك . وأبدى فى هذه الرسالة تفهما عميقا

للمنطق الجدلي وللأفكار المناهضة لمسائل ما وراء الطبيعة .

وارتحل في ربيع ١٨٩٥ الى أوروبا الغربية . واتصل هناك بجماعة تحرير العمل . ثم عاد الى روسيا فقام بدور رئيسي في انشاء وتوجيه اتحاد عمال بتروجراد وعصبة الكفاح لتحرير الطبقة العاملة . وتولى اصدار صحيفة سرية أطلق عليها « صحيفة العمال » .

وفي ديسمبر ١٨٩٥ قبض عليه وأودع السجن حيث لبث أربعة عشر شهرا . وطفق وهو في السجن بوجه الرسائل الى المنظمات الثورية ، ووفق في تهريبها . وكتب طائفة من الدراسات والأبحاث تنهر جميعها حول قضية العمال . وشرع خلال هذه الفترة في تأليف كتابه « تطور الرأسمالية في روسيا » .

وفي فبراير سنة ١٨٩٧ ، صدر قرار نفيه الى سيبيريا حيث أمضى ثلاث سنوات في معتقل « شوشينسكوى Shushenskoe » على نهر ينيسي Yenisei . وأنجز في معتقله كتابه الضخم «تطور الرأسمالية في روسيا» الذي أثر تأثيرا بالغا في تطور الحركة الاشتراكية . ولم ينقطع وهو في منفاه النائي عن الاطلاع على أمهات الكتب الفلسفية من تأليف : سبينوزا ، هليفتيوس ، كانط ، فيخته ، شيلنج ، فيورباخ ، لانجه ، بليخانوف . وكان أنصاره دائمي الاتصال به ، يبعث اليهم بالمشورات والتوجيهات ، ويرسلون اليه ما يريد من مؤلفات وبيانات .

وفي عام ١٨٩٨ ؛ تزوج لينين « نأأيجدا كروبسكايا Nadezhda Krupskaya » وكانت زميلته بالمنفى ، فأصبح منزلهما ملتقى

المنفيين السياسيين ومركز رسم الخطط الثورية . وأطلق عليه زملاؤه اسم « لينين » المشتق من اسم نهر « لينا Lena » الذي يتدفق عبر تلك المنطقة في سيبيريا حيث كان لينين منفيًا ؛ وعرف بهذا الاسم بقية حياته وبعد موته .

وفي عام ١٩٠٠ ، أطلق سراحه . فأمضى السبعة عشر عاما التالية - عدا فترات قصيرة - متنقلا في أرجاء أوروبا . وكان يوجه من خارج روسيا الثوريين داخلها . وتعاون أثناء اقامته بالخارج مع طائفة من المهاجرين الروس كان « بليخانوف » في مقدمتهم . وأنشأ بمدينة ميونخ صحيفته «ايسكرا Iskra » (أى القبس) المشهورة في تاريخ الاشتراكية ، لتكون لسان حال الاشتراكية الروسية ودعامة استطالة الحزب الاشتراكي العتيد .

واهتم لينين خلال هذا العهد بمناهضة آراء زعماء الدولية الثانية - وبخاصة برنشتين - الذين رنوا الى تحقيق الاشتراكية باستخدام الوسائل السلمية . ذلك لأن لينين قد آمن ايمانا جازما بنظرية الصراع الطبقي وبديكتاتورية البروليتاريا وبضرورة انشاء حزب مناضل يخضع لتنظيم دقيق .

وفي سنة ١٩٠٣ ، عقد الحزب الاشتراكي الروسي مؤتمره الثاني في لندن ، وأسفر عن انقسامه الى أغلبية برئاسة لينين دعت باسم « البولشفيك » من الكلمة الروسية Bol'shevik (وتعنى الأكثرية أو الأغلبية) وأقلية تناهضه وأطلق عليها لقب « منشفيك » من الكلمة الروسية Men'shevik (وتعنى الأقلية) . فأصدر كتيبا عنوانه « خطوة للوراء ، خطوات للامام » وصف فيه اختلافات الرأي التي ظهرت في ذلك الاجتماع ، ثم أصدر عام ١٩٠٤ صحيفته « نحو الأمام » التي أسماها عام ١٩٠٥ « البروليتاريا » .

وفي أكتوبر عام ١٩٠٥ ، عاد لينين الى روسيا حيث ساهم بنفسه في الحركة الثورية التي نشبت وقتذاك عقب هزيمة روسيا في حربها ضد اليابان. وقد دعا في كتاباته الى استخدام العنف لاقامة النظام الاشتراكي ، مناهضا نزعة « المنشفيك » الذين جذبوا التطور في تشييد الاشتراكية . وازاء اشتداد رقابة البوليس القيصرى ، لجأ الى فنلندا عام ١٩٠٦ ، لكنه اضطر لمغادرتها عام ١٩٠٧ . وظل يدير الحزب البلشفي ويوجه نشاطاته الثورية وهو خارج البلاد . وفي عام ١٩١٢ ، أصدر صحيفة يومية أطلق عليها « الحقيقة » (البرافدا) وما تزال لسان حال الحزب الشيوعى الروسى حتى اليوم . ونقل مجال نشاطه الى مدينة كراكوف ببولندا ليكون قريبا من مسرح الأحداث في روسيا . وترأس الوفد الروسى في المؤتمر الاشتراكي الدولى المنعقد في شتوتجارت عام ١٩٠٧ والمنعقد فى كوبنهاجن عام ١٩١٠ .

وتوجت جهود لينين بنشوب الثورة التى أطاحت بالنظام القيصرى وبالرأسمالية كليهما . وبدأت الثورة باندلاع مظاهرات عمت البلاد فى فبراير سنة ١٩١٧ . وأخذت الثورة تتطور تطورا خطيرا . وفى يومى ٩ و ١٠ مارس سنة ١٩١٧ ، هبت بمدينة بتروجراد مظاهرة هائلة قوامها العمال والنساء والأطفال تطالب بالخبز . وحمل المتظاهرون للمرة الأولى الأعلام الحمر شعار البلشفية (حزب لينين) . وفى ١٤ مارس سنة ١٩١٧ تألفت الحكومة المؤقتة تحت رئاسة كيرنسكى ، فنصحت القيصر بالتنازل عن العرش لولده . لكن أصرت الأحزاب الاشتراكية المختلفة على اعلان الجمهورية ، فأعلنت فى ١٦ مارس سنة ١٩١٧ . على أن الحكومة المؤقتة قد شملت فى تكوينها العناصر المعتدلة والمحافظة

دون غيرها ، أما الأحزاب الاشتراكية المختلفة فظلت بعيدة عنها . وفى ١٦ ابريل سنة ١٩١٧ وصل لينين بتروجراد قادما من منفاه بسويسرا . ثم عقد المؤتمر الأول للحزب الشيوعى خلال أيام ٧ - ١٢ مايو ١٩١٧ ، وفيه تقرر نقل كافة السلطة الى نواب « سوفيت العمال والجنود » وتسليم الأراضى الى الفلاحين ممثلين فى سوفيات نواب الفلاحين . كما أعلن المؤتمر « تأييد الحزب البلشفي للاخوة العامة لكافة الجنود فى الأقطار المجاورة وحضهم على أظهر التضامن فى سبيل تسنم طبقة البروليتاريا الحكم فى الأقطار المحاربة » .

وألقى لينين خصومه المنشفيك يسيطرون على سوفيات المدن (أى مجالسها) بينما يسيطر حزب الشعب « الناردنيك » وحزب الاشتراكيين الثوريين على سوفيات القرى . كما تكونت الجمعية الدستورية من ٤١٧ عضوا من الاشتراكيين الثوريين و ٦٤ عضوا من ممثلى الأحزاب البورجوازية ، ٣٤ عضوا من الديمقراطيين الاشتراكيين ، بينما لا يتعدى نوابه ١٧٥ بولشفيًا . وكان أول اجراء اتخذه لينين : اصدار ما أسماه « بيان ابريل » الذى اعتبره كثير من أتباعه جنونا مطبقا . إذ نادى فيه بمناهضة الحكومة المؤقتة ، وباقامة جمهورية سوفيتية تمهد طريق الانتقال للحكومة البروليتارية . كما طالب بتأميم الأرض التى كان انفلاحون قد استولوا عليها بالفعل .

وفى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، دبر البولشفيك ثورة مفاجئة . فاستطاعوا تسنم حكم البلاد ، وكان حل الجمعية الدستورية - التى كانوا أقلية فيها - مقدمة أعمالهم . ثم عقدوا الصلح مع ألمانيا ، واستصفوا أراضى كبار ملاك الأرض والنبلأ وغيرهم ووزعوها على الفلاحين . وسلموا ادارة المصانع

والمناجم للعمال ، وأممووا الانتاج والاستهلاك ،
وآلغوا الديون الحكومية التى عقدت فى عهد
القيصر ، ومنحوا الحكم الذاتى للقوميات والأقليات
المختلفة ، وجعلوا السوفييتات دعامة نظام البلاد
الادارى والسياسى . وبالجملة ، أقاموا ما دعى
بعده باسم «ديكتاتورية البروليتاريا» أو بالأحرى
ديكتاتورية الحزب الشيوعى البلشفي .

وظل لينين على رأس الدولة السوفييتية الجديدة ،
يجابه الأزمة تلو الأزمة برباطة جأش وعزم لا يفل ،
ويعمل فى نشاط جبار على تدعيم نظامه ، الى أن
مات يوم ٢١ يناير عام ١٩٢٤ .

٢ - تأثير البيئة الروسية على تفكير لينين

على الرغم من خضم الآراء التى خلفها لينين ،
فلم تكن القضايا التى كافح فى سبيل اقرارها مجرد
نظريات مجردة ، بل انها لتتصل أوثق اتصال
بالسياسة العملية . ولم يتبلور هدفه الحقيقى من
كتاباتة فى تبرير مقاصده بالنظريات وصياغتها
واصطناعها ، بل رنا الى دفع الناس لانجازها
واغرائهم بالاقبال على اخراج آرائه الى حيز
التنفيذ العملى .

وفى الحق ، وفى ادراكه الجانب الواقى من
القضايا الفكرية تكمن عبقريته ، وان التمس تسويغ
مناهجه بالاستشهاد بما ورد بالمراجع الماركسية .

ولا يفض هذا القول من تأثير آراء ماركس على
لينين . فهو قد آمن بماركس ، لكنه آمن - بالذات
- بمبدأه القائل بأن الحركة العمالية ان لم تكن
ثورية فهى والعدم سواء . ولم يتعرض ماركس
للجوانب العملية ان تولت البروليتاريا الحكم ،
فى حين جابه لينين المشكلات الادارية عقب توليه
حكم روسيا وكان عليه ايجاد الحلول .

فالماركسية قد صاغت تفكير لينين ، الا أنه
قد أضفى عليها طابعا خاصا أسبغته عليه البيئة
والتاريخ الروسيين ، وبخاصة تطور الحركة الثورية
منذ ما يعرف باتفاضة الديسمبريين عام ١٨٢٥ .

ففى ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، طالب عدد من ضباط
الحرس القيصرى القيصر نيقولا الأول تنفيذ طائفة من
الاصلاحات الأولية . ولا شك أنهم قد تأثروا فى
دعوتهم بمبادئ الثورة الفرنسية بفضل اختلاطهم
بالجنود الفرنسيين فى حربهم ضد نابليون بونابرت .
لكن القيصر أصم أذنيه عن أية دعوة اصلاحية
سياسية كانت أم اجتماعية فكان أن اتجه الفكر
الروسى صوب الثورة لتتيله مأربه فى الاصلاح
الذى عجز عن كفالتة بالوسائل السلمية .

لكن يتسم تاريخ روسيا بتأرجحه المستديم
بين العزلة من ناحية ، والاعتماد على الغرب من
الناحية الأخرى . أى بين الاعتزاز الغيور بعبقريه
روسيا وتقليدها القومية فى جانب ، والحماس
الشديد للافادة من منجزات الغرب وسبقه .

ففى خلال الحقبة التى تلت حركة الديسمبريين
احتدم الجدل بين أنصار الاقتباس من الغرب واعتناق
الأفكار الأوربية الليبرالية بالتالى ، وبين دعابة
التشبث بالتقاليد السلافية والتزام حضارة روسية
المنحى مستقلة عن الحضارة الغربية ، واتخاذها -
أى الحضارة السلافية - ركيزة تقدم البلاد
وارتقاءها .

واتسمت المرحلة الأولى من التحول الفكرى
الروسى ، بغلبة فلسفة هيغل على أذهان المثقفين ،
والى باكونين يعزى فضل تعريف الروس بها .
واذا كانوا قد سلموا تسليما مطلقا بجميع آراء
هيغل عن ارتقاء الأمم ، فما كانوا ليسلموا بنتيجة
منطقه الجدلى الذى يجعل من الألمان زعماء البشرية

بما يعنى هذا من تجريد العنصر السلافي من مكانته التي يستحقها في المجتمع الدولي . وها هنا يبرز نقد دعاة الحضارة السلافية للحضارة الغربية. فنجدهم يؤكدون رسالة روسيا المقدسة وينادون بالجامعة السلافية . وجدير بالذكر أن باكونين كان من دعاة الجامعة السلافية ، قبلما ينقلب الى فوضوى دولي .

وفي غضون الستينات من القرن التاسع عشر ، أخذت حركة الاصلاح تنتقل من مجال الفكر الى مجال الفعل . وتم ذلك بفضل تأثير «تشرنيشفسكى Chernyshovsky أول صحفي ثوري ساهم مساهمة فعالة في الجمعيات السرية التي انبثقت في ذلك العصر . وتتسم هذه الفترة بظهور «العدمية Nihilism» ، وتعتبر خلة ذهنية تفرد بها الفكر الروسي . وقد استنبطت معتقدها من معين الآراء الغربية ، مثلما استنبطت الفوضوية عقيدتها. والعدمية وان اتصفت بالواقعية والتماسك واعنتقت الفلسفة اليقينة ، فقد سيطرت على أتباعها فكرة تحدى كل مبدأهما يكن من أمر قدسيته ، ونشدت قضاء غايتها باستخدام الأساليب الارهابية .

ويجب أن لا نخلط بين «العدمية» و«الفوضوية» .. فللفوضوية معنى أوسع شمولاً ، اذ هي فردية في جوهرها . فلكي تتخلص من الأخطاء التي جبلت عليها النزعة الفردية ، نجدها تعلو من قدر تلك السورات الفكرية التي توفر التوافق والتجانس بين الناس ، وتناهض ما يدعو الى كبت الحرية واحتجاز الانطلاق وكبح جماح الارادة . ومن هنا نبذها سلطان الدولة واعراضها عن أى نوع من السلطة المركزية القهرية . ويعتبر « باكونين » و « كروبتكين » أعظم دعاةها . ولم تكن فكرة

كراهية الدولة بالجديد على العقلية الروسية ، اذ كانت سلطة الدولة بغيضة الى النفس الروسية . وهذا لعمري تأثير البيئة الروسية وقوامها سهل فسيح يمتد من بحر البلطيق حتى المحيط الهادى ، فأصبح على السلطة القائمة واجب تقييد تحركات السكان لتمارس سلطانها كدولة ، فكان أن ترتب على ذلك انبعاث سلطة مركزية قوية ونشوء نظام الرقيق . واستجاب الروس لهذا التحدى بالفرار من ربقة السادة الاقطاعيين - وسلطان الحكومة بالتالى - وتكوين جماعات منغزة خارجة عن سلطان الدولة (القوزاق) . ولما استفحل سلطان الدولة انبثقت الجماعات الفوضوية والارهابية .

ولقد أثرت الفوضوية في الفكر السياسى الروسى تأثيرا شديدا اتخذ عدة أشكال :

فلقد تطلعت الفوضوية الى تشييد مملكة للروح يعيش في ظلها الناس جميعا متحدين .

وانقلبت - أى الفوضوية - بفضل الهام باكونين الى معتقد تدميري يجعل العنف مبدأ الحياة الابداعى .

وفي حركة « الأرض والحرية » وجد مفكرو الستينات الروس متنفسا بما يعنلج في نفوسهم من آمال فى اصلاح أحوال بلادهم . لكن استطاعت الحكومة القيصرية قمعها . وأمضى رائدها « تشرنيشفسكى » عشرين عاما منفيًا فى سيبيريا. وانبث على انهيار الحركة ، انبعاث حركة جديدة أشد تطرفا قادها « نيخايف Nechaev » تلميذ باكونين زعيم الفوضوية . ونادى بالثورة على الأوضاع السائدة ، واشترط فى الثورى أن يطرح جميع الارتباطات التي تقيده بالمجتمع ، لينصرف الى انجاز غايات الثورة وحدها . وأنكر المبادئ،

ان تعارضت مع أهداف الثورة . ولقد راعى
تطرفه باكونين نفسه ، فقطع صلته به .

وبرز حزب الشعب «نارودنيك Narodnik»
خلال السبعينات من القرن التاسع عشر. وتبلورت
غاياته فى مزج حمية الغرب للعلم والتعليم ، بإيمان
دعاة السلافية بعبقريّة روسيا . وآمن ذلك الحزب
باتخاذ مجتمع القرية الروسية (أى المير Mir)
قاعدة النظام الاشتراكي العتيد ، وكانت الملكية
فيه مشتركة . وبهذا الاجراء تتجنب روسيا فى
رأيه -شروور الرأسمالية التى جنت على الغرب
التحلل والفساد . ولم يقنع حزب الشعب باحداث
ثورة سياسية ، لعله بأنها ستمكن البورجوازية
من السيطرة على مقاليد الأمور ؛ بل نادى كذلك
بالثورة الزراعية وباستخدام العنف لكفالة
الاصلاح . وهاهنا يفترق حزب الشعب عن فكرة
التطور السلمى التى اعتنقها « هرزن Herzen »
ومريدوه . وفى عام ١٨٧١ ، نظم الحزب حركة
« توجهوا الى الشعب » ، فتوجه ألفان من مثقفى
أعضائه الشبان الى الريف ، لكن لم يحفل بحركتهم
الفلاحون . اذ ما كانت الاشتراكية لتعنيهم فى
قليل أو كثير ، اذ قد تاقوا للحصول على المزيد من
الأرض بعد تحررهم عام ١٨٦١ من نظام الرق .
فكان أن آمن حزب الشعب - بعد فشل
محاولته - بعدم نضوج الفلاحين للثورة .

وقاد فشل حركة « توجهوا الى الشعب » الى
اعادة انشاء حركة « الأرض والحرية » التى
انقسمت عام ١٨٧٩ الى جماعتين : تدعو الأولى
لاستخدام العنف تحت زعامة زوليابوف
Zholyabov الذى أطلق عليه لينين لقب
المتآمر الأول لتدييره قتل القيصر الكسندر الثانى
عام ١٨٨١ . ودعت الجماعة الثانية للاستعانة

بالأساليب السلمية لتبصير الشعب بحقوقه .

وفى عام ١٨٨٣ ، أنشأ «جريجورى بليخانوف»
بمعاونة « بول أكسلرود Axelrod » و
« فييرا زاسوليك Zasluch » (بمنفاهم
بسويسرا) جماعة أطلقوا عليها « تحرير العمل »
ذات برنامج ماركسى . وبفضل بليخانوف ، أخذت
الماركسية تغزو عقول المثقفين الروس . وكان من
رأيه الاستناد الى عمال المصانع لتحقيق الثورة
المرتجاة ، نظرا ليأسه من تعاون الفلاحين ، بعد
فشل حزب الشعب كما مر بنا . بل لقد جاهر
بليخانوف بعداء الفلاحين للثورة ، واتهمهم بغلبة
النزعة البورجوازية على تفكيرهم واذا كان
بليخانوف قد تنبأ بسيطرة العمال على الحكم فى
نهاية المطاف ؛ لكنه قرر بأن حكم العمال تسبقه
ثورة بورجوازية ديمقراطية . ويعتبر بليخانوف
أبا الماركسية الروسية ، وقد أثرت تعاليمه فى تفكير
لينين كثيرا .

وبفضل أفكار لينين توحدت الماركسية مع
التقاليد الثورية الروسية . ويتضح هذا للباحث
من استقراء رسالته « مالذى فعله ؟ » التى
نشرها عام ١٩٠٢ ، التى تعبر تعبيرا واضحا عن
روح لينين الثورية الوثابة المناهضة للتطور ، وهى
التى بثها فى الحركة الشيوعية . فلقد أبرز لينين فى
رسالته ؛ تلك الأهمية البالغة لوجود كيان سياسى
مركزى الى أقصى الحدود . والمركزية سمة لازمة
للحكم والسياسة الروسين فى التاريخ الروسى
بأسره ، فرضتها - كما بينا - البيئة الروسية على
حكامها . وقوام السياسة المركزية - عند لينين -
أن تتولى جماعة صغيرة من الزعماء المجريين
الغيورين - يعملون متحدنين وتتأصل فيهم الروح
الثورية العارمة - تتولى هذه الجماعة رسم

٣ - دور لينين فى الفلسفة الماركسية

اهتم لينين بدراسة المشكلات الفلسفية منذ ان كان طالبا بجامعة قازان . لكنه لم يتعمق فى دراستها الا بعد ثورة ١٩٠٥ الروسية ، وقتما أخذت مقالاته الانتقادية تنتشر فى أوساط الماركسيين الروس .

ولقد ساهم لينين مساهمة فعالة فى اخصاب النظرية الماركسية . بيد أن مذهبه عن « الثورى الاخصائى » الذى أبانه فى كتابه « مالذى يجب فعله ؟ » يعتبر قمة تفكير لينين الأكاديمى . اذ رسم فيه خطأ فاصلا بين تنظيم العاملين وتنظيم الثوريين . فيجب أن يتجمع العاملون - أساسا - فى منظمات نقابية الطابع على أعظم قسط ممكن من الاتساع والشمول ، ولكن بالقدر الذى تسمح به السلطة الحاكمة .

أما منظمة الثوار ، فيجب أن تتألف - على العكس - من ثوار محترفين . ويجب أن تكون ضيقة النطاق ، تتم أعمالها فى جو السرية التامة .

ولقد أثمرت دراسته الفلسفية كتابه المشهور « المادية والنقد التجريبي » الذى أصدره عام ١٩٠٩ .. وتكمن أهمية الكتاب فى بحثه المستفيض لمشكلتين فلسفيتين ، كانت لهما أهمية بالغة ابان عصره بالذات :

الأولى - أن تطور الفلسفة الحديثة فى أعقاب ماركس وانجلز ، قد جعل لمشكلة المعرفة صدارة البحث والنقاش . اذ غدا من الضرورة بمكان عظيم ، حل مشكلة المعرفة على أساس المادية الجدلية ، محافظة على المذهب الماركسى من التداعى فى المجال الفلسفى .

الخطط والاشراف على تنفيذها . ومما يؤثر عنه قوله « أعطنى منظمة من الثوريين وأنا الكفيل بالاستيلاء على روسيا بأسرها » . وعلى هدى هذا التفكير ؛ أرسى لينين أساس الحزب القائم على تكوين خلايا صغيرة من الثوريين المحنكين . وعن طريق هذه الخلايا - وحدها - يتم - كما يقول لينين - التعامل مع جميع مستويات الطبقة العاملة وغيرها من طبقات المجتمع . ويصر على أن يكون الثورى المحترف مدرباً تدريباً دقيقاً لا يقل عن مستوى تدريب رجل البوليس الكفاء . كما يطالب بأن يخضع المؤمنون بالثورة لهيئة تتولى الاشراف على تنظيمات العمال التى تتألف وفقا للقواعد التى تضعها هيئة الثوار العليا . ومع أن ماركس قد افترض حتمية قيام الطبقة العاملة بتنمية وعيها الطبقي فى غمار صراعاتها الدائم لكفالة لقمة العيش ؛ فقد أبدى لينين ارتياحه الشديد فى قدرة العمال على تنمية مداركهم السياسية بجهودهم وتجاربهم وحدها ، فهو القائل « لن يتيسر تزويد العمال بالوعى السياسى الا من الخارج : خارج نطاق الكفاح الاقتصادى ومن خارج مجال العلاقات بين العمال وأرباب الأعمال » .

فظاهر مما تقدم أن تنظيم القاعدة السياسية - كما تصورها لينين - تجافى تماما ما كان مألوفا فى الأحزاب الاشتراكية فى زمانه ، وتناهض فكرة ماركس على طول الخط . وهذا ما دعا الكثيرين الى اتهام لينين بالابتعاد عن الماركسية ووصف حزبه بأنه مجموعة من غوغاء العمال والفلاحين الارهابيين .

ولكنها البيئة الروسية وأحكام المجتمع

الروسى !!

موضوعيتهما ضد تهجمات أصحاب النزعات الميتافيزيقية (الغيبية) .

وبالنسبة لمشكلة المادة - سعى لينين للتفرقة بين نظرة كل من الفلسفة والعلم . اذ تعنى النظرة العلمية بكيان المادة الطبيعي ، بينما ترى الفلسفة أن المادة هي ما تدركه حواسنا ، وهي الحقيقة الموضوعية التي تتمثل للاحاسيس .

ويتبدى لنا مما تقدم أن لينين قد طابق بين المادية والواقعية . فلا تعنى المادة لديه سوى أنها حقيقة موضوعية مستقلة عن الفرد المدرك .

ولقد كرس لينين جهوده خلال سنوات الحرب العظمى الأولى لدراسة الفلسفة . وعنى خاصة باستيعاب مؤلفات هيغل في المنطق وفلسفه التاريخ وتاريخ الفلسفة ، وبرسالة لاسال عن هراقليطس ، وبكتاب أرسطو عن الميتافيزيقا . وامتازت تعليقاته عليها بعمق التفكير (١) .

وثمة مشكلة فلسفية استحوذت على تفكير لينين واستأثرت بنشاطه العلمى . تلك هي مشكلة « المنطق الجدلى » . اذ اعتبرها عنصر الماركسية الأساسى . وعند بحثه عوامل الصراع الأوروبى ، انهمك فى تقصى قواعد المنطق الجدلى وبحث جوهر طبيعته . وتحت تأثير دراسته للمادية الجدلية ، استنبط فكرته عن انبعاث المتناقضات الكامنة فى الكيان الاجتماعى للعالم البورجوازى وبروزها على سطح الأحداث الداخلية والدولية ، مما يقود الى نشوب الثورة البروليتارية العتيدة .

ومن رأيه أن وحدة المتناقضات هي منشأ

(١) يجد القارئ الكريم تعليقات لينين السالفة الذكر فى الجزءين الحادى عشر والثانى عشر من مختارات أعماله .

الثانية - بدت فكرة المادة فى أيام ماركس وانجلز فكرة بسيطة الى أبعد الحدود ، واضحة وضوحا لالبس فيه . فالعلم - فى عصرهما - قد اعتبر الذرة قوام المادة الأساسى . لكن تغير الحال بعد عصرهما ، للاهمية الجوهرية التي حظيت بها نظرية المادة فى العلوم الطبيعية . ذلك لأن كشف النشاط الاشعاعى فى طائفة من العناصر - ابان السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر - قد فرض اعتناق مبدأ عدم تمثيل الذرة نهاية قابلية التقسيم فى المادة ، لما تبين للباحثين من أن الذرة لون من نظام شمسى مصغرىضم بينطياته الكتلونات سلبية تدور حول نواة ذات شحنة موجبة . ودفع هذا الانقلاب الفكرى ببعض الباحثين للتحدث عن أزمة الفوزيقى (العلم الطبيعى) وعن دمار المبادئ القديمة وتكلموا عن تجريد الذرة من ماديتها واختفاء المادة بالتالى .

ويعنى هذا كله تحطيم النظريات الماركسية . وتستند جميعها على أن المادة حقيقة موضوعية وأن الفكر مشتق عنها ، بل انه انعكاس لها . ونتج عن هذا ، لجوء كثير من علماء الطبيعة الى المثالية ليجدوا فى رحابها ملاذا من البلبلة الفكرية . حتى بلغ الأمر بأحد هؤلاء العلماء أن قال « كل ما ليس بفكرة ، هو مجرد عدم » .

وكان أن انبرى لينين فى كتابه « المادة والنقد التجريبى » لحل هاتين المشكلتين :

فبالنسبة لنظرية المعرفة - نادى لينين بتطابق الجدل مع المنطق ونظرية المعرفة . ولقد أعلى من شأن التجربة واعتبرها معيار نظرية المعرفة وقاعدتها . ثم بحث مشكلة الفضاء والزمن مدافعا عن

المادة وسببها ، وتمثل وحدة المتناقضات - في رأيه - قلب المنطق الجدلي . ذلك لأن انقسام الواحد الى عناصره المتعارضة وتصادمها ، هو المصدر الراسخ لجميع أوجه النشاط والارتقاء . فما العالم الموضوعى - بكافة ما يتضمنه من وفرة وتعقيد وتنوع - الا « كل واحد متماسك » .

وها هنا نلمح تأثير لينين الشديد بالفيلسوف « هيجل » في نظرته للعالم على أنه نسيج عالمي قوامه الترابط والاتصال بين جميع نواحيه ، وأنه عملية متصلة من الارتقاء تشكل مجراه بين تضاعيف تصادم المتناقضات المتصارعة .

ويورد لينين ستة عشر عنصرا تؤلف لديه جوهر المنطق الجدلي :

١ - موضوعية المواجهة . فليس ثمة نماذج ، ولكن هناك الشيء أو الظاهرة أو العملية أو النوع أو المشهد .. الخ .

٢ - الترابط بين كليات هذا الشيء (أو الظاهرة أو العملية .. الخ) وغيرها من الأشياء (أو الظواهر .. الخ) .

٣ - استئطالة هذا الشيء (أو الظاهرة .. الخ) وأساس الاستئطالة فردية الحركة والحياة .

٤ - تناقض اتجاهات الشيء - أحدهما الآخر - في داخلته .

٥ - تكون الشيء من مجموعة أضداد متحدة .

٦ - تصارع هذه الأضداد ، وتضادية الاتجاهات .

٧ - وحدة التحليل والتركيب - تشریح الأجزاء الفردية وتشطير الكل ، وتجميع كافة هذه الأجزاء معا .

٨ - لا تقتصر علاقات كل شيء (أو ظاهرة أو عملية .. الخ) بكل شيء آخر (أو ظاهرة أو عملية .. الخ) .

٩ - لا يقتصر الأمر على وحدة الأضداد ، بل ان كل شيء (أو عملية أو مظهر أو شعور أو تجلى .. الخ) يتجه الى نقيضه .

١٠ - عملية لا نهائية لاستخلاص وجهات وعلاقات جديدة .

١١ - يتجه الانسان الى تعميق مفهومه عن الأشياء والظواهر والعمليات والتجليات والمشاهد .. الخ عن طريق تحول المعرفة : من المظهر الى الجوهر ، ومن سطحية طبقات الوجود الى عميقها .

١٢ - الانتقال من التواجد الى العرضية ، ومن شكل واحد للترابط واعتماد الفرد على الآخر الى شكل أعرق وأعظم شمولاً .

١٣ - نقل السمات النوعية والخصائص والصفات .. الخ من المستوى الأوطأ الى المستوى الأعلى .

١٤ - رجعى ظاهرة للشكل القديم (نفي النفي) .

١٥ - تصارع المحتوى مع الشكل ، والعكس بالعكس . واطراح الشكل وانقلاب المحتوى .

١٦ - قابلية الكم (المادة) للتحول الى كيف (الوصفية) ، وامكانية استحالة الكيف الى كم (مادة) .

ويتضح لنا من مقارنة وجهة نظر كل من انجلز ولينين فى شأن المادية الجدلية ، أن لينين أشد اهتماما من انجلز - بما لا يقاس - بالنسبة

– المفتاح الى اللينينية فى الأهمية التى توليها
للمشكلة الزراعية . فمن رأيه أن اللينينية نظرية
الثورة البروليتارية التى انبثقت مباشرة عن بلد
يسيطر عليه العامل الزراعى أساسا .

Preobrazhensky ويفرق « بريوبراجنسكى
– من رفاق لينين الأوائل – فى نطاق الماركسية
بين العناصر الغير المتغيرة التى يجب العمل على
تطويرها واستكمالها ، وبين تلك العناصر التى يجب
ان تحل محلها عناصر جديدة مختلفة عنها . والمادية
الجدلية هى قوام المنهاج العلمى للعناصر الغير
المتغيرة فى الماركسية ، وهى دعامة الذاتية النظرية
اللينينية والماركسية .

ومهما يكن من الأمر ، فقد استبان لنا من
دراستنا هذه أنه يرجع الى لينين فى الفضل
المنجزات التالية :

أولا – تعميق مفهوم اصلاح المادة .

ثانيا – اقامته نظرية القاعدة .

ثالثا – توكيد ضرورة توحيد النظرية والتجربة ،
وابرازه أهمية الحزب لنجاح الثورة .

رابعا – حماسه الشديد لدراسة منطق المادية
الجدلية ، حتى لقد سيطر على تفكيره وتفكير
الفلاسفة السوفييت بعده .

ونورد فيما بعد أهم القضايا التى عرض لها
لينين عامة وفى كتاب « الدولة والثورة » خاصة .

٢ – موقفه من الطبقة المثقفة :

شرح لينين فى كتابه « الدولة والثورة » وغيره
من أعماله كيفية ادارة دولة البروليتاريا المتيدة .

لموضوع وحدة الأضداد ، اذ جاء فى المحل الثانى
من تفكير انجلز بينما قد جعل لموضوع التحول
من الكمية الى الكيفية (وبالعكس) الصدارة
من تفكيره . فى حين يشغل موضوع التحول من
الكمية الى الكيفية (وبالعكس) المكان الأخير
(السادس عشر) من نقاط لينين السالفة الذكر .

وبالأحرى ، يبحث لينين الطريقة الجدلية على
هدى فكرة وحدة الأضداد ، ويطبّقها على
اصطلاحى « المادة » و « الطبيعة » . بيد أنه
يستخدم اصلاح « المادة » ليعنى به « الواقعية » .
ولم تكن الدراسات الفلسفية – وحدها –
أداة لينين لفهم طبيعة الأحداث التى ألمت بالعالم
فى غضون سنوات الحرب العالمية الأولى . فلقد
استعان بعلم الاجتماع للتدليل على ان ساعة
اندلاع الثورة البروليتارية آتية .

٤ – اتجاهات لينين الفكرية

١ – طابع اللينينية :

اختلفت الآراء بشأن طابع اللينينية ومضمونها :
فلقد عرفها ستالين بأنها ماركسية عصر
الامبريالية البروليتارية . واللينينية نظرية الثورة
البروليتارية فى مجموعها ، وهى منهاج عملها .
ويعتبرها مرحلة تقدمية للماركسية .

ويرى العلامة الماركسى الكبير « ريبازانوف
Ryazanov » الاختلاف بين الماركسية واللينينية
فى أن الأولى نظرية والثانية تطبيقية .

وآخرون يرون فى اللينينية تطبيق الماركسية
على الظروف السائدة فى روسيا .

ويجد زينوفيف – وكان من رفاق لينين الأوائل

لكن تصادمت آراؤه مع الواقع العملى بعد تسننه
حكم البلاد .

اذ كان من رأيه أن الأعمال الادارية تنحصر فيما
أسماه « المحاسبة والمراقبة » . وأن الادارة تتضمن
« عمليات التدوين والتسجيل والمراجعة » ، وأن فى
وسع أى انسان ملم بالقراءة والكتابة القيام بها .
فليست ثمة حاجة لوجود بيروقراطية يجاوز مستوى
الأجور التى يتقاضاها أفرادها مستوى أجور
العمال .

وطالب فى رسالته « كيف ننظم المنافسة »
(ونشرت فى يناير ١٩١٨) بتدمير نظام الأجور
(ووصفه بالظالم) الذى يحصل المتعلمون بمقتضاه
على أجور أعلى من أجور العمال . وهذا القول
صدى فكرته القائلة بأن فى مكنة أى انسان عادى
القيام بالأعمال الادارية .

وهذه النظرية الساذجة للمسائل الادارية - بلا
ريب - نتيجة حماس لينين فى غمار ثورة جماهير
العمال . فما أن بدأت أحوال الدولة تستتب بعض
الشيء ، حتى استبان له خطأ حكمه . ففي ابريل
سنة ١٩١٨ - ولما يمض على تصريحه السابق ثلاثة
شهور - أعلن فى رسالته « الواجبات العاجلة
للحكومة السوفيتية » استحالة بلوغ مرحلة
الاشتراكية من غير توافر الخبراء ، وأن الاخصائيين
بورجوازيون بأصلهم وأن لا مناص من حصولهم
على مرتبات عالية . وفى مؤتمر الحزب الثامن
المنعقد فى مارس ١٩١٩ ، أصر لينين على ضرورة
تسوية موضوع الاخصائيين البورجوازيين ، منوها
بضرورة الاستعانة بخبراتهم لحسن ادارة مرافق
الدولة .

واستقرت سياسة لينين تجاه الطبقة المثقفة

بعد ذلك . فأعلن فى مؤتمر الحزب التاسع المنعقد
فى ابريل سنة ١٩٢٠ ضرورة الاستعانة بالكفايات ،
حتى ما انتسب منها للطبقة القديمة التى اترعتها
الثورة عن سلطانها . وبرر هذا الاجراء بأن
الاستعانة بالطبقة المثقفة شر لا بد منه ، وعزى نفسه
بأن ذلك موقوت الى أن يتم تدريب العمال أنفسهم
على الأعمال الادارية .

فكان لينين قد اتخذ حيال الطبقة المثقفة موقفا
يتسم بالتناقض للوهلة الأولى .

فهو قد جرد الخبرات البورجوازية من أملاكها
وحرمها حقوقها السياسية .

لكنه أقبل على الافادة منها مدفوعا بإيمانه
- عن تجربة - باستحالة تسيير دفة شئون البلاد
بدون الاستعانة بالمثقفين .

وفى ظل تنفيذ مشروعات السنوات الخمس
المتتالية وبفعل الأحداث الدولية - وفى مقدمتها
الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة - برز
جيل من الخبراء وفد معظم أفرادهم من أصول
بروليتارية وريفية . لكن قام صرح الجيل الجديد
من الاخصائيين على أساس متطور من التقاليد
الادارية المأثورة مع تعديلها ومقتضيات النظام
السوفيتى . فكان أن انبثقت طبقة من الصفوة
تتألف من الاخصائيين الفنيين فى كافة مناحى
الثقافة والعرفان والتنظيم والتكنولوجيا ، تحظى
بأجور أعلى كثيرا من متوسط الأجر وتستمتع
بمستوى معيشة رغيد لا يتيسر للفرد العادى بأية
حال من الأحوال . وهذه الطبقة المثقفة هى التى
توجه شئون البلاد . ولا بدع فى هذا ، فالفكر فى
كل آن وأوان ، وفى كل زمان ومكان هو الموجه

والمسيطر . وتلك لعمري سنة الحضارة التي لن نجد لها تديلا .

٣ - دور الحزب :

اتضح للينين منذ البداية أن نجاح الثورة يتطلب توافر أداة تتمثل في حزب تسرى في نفوس أفراد الطاعة والنظام ، ويخضع لأداة مركزية صارمة . ويؤثر عنه قوله « لن تنبعث حركة ثورية من غير نظرية ثورية » . وأفصح فيما كتبه بعد ذلك عن ضرورة قيام الحزب بقوله بأن الطليعة لن يتأتى لها القيام بدورها المرتجى في الثورة الا عن طريق حزب يعتنق نظرية تقدمية يتولى تلقينها للجماهير . وابتغى أن يكون حزبه : شاملا روسيا بأسرها ، يسوده التجانس الأيديولوجي ، الجدل دعامة الأساسية ، يجمع بين الفكر والتطبيق العملي ، يشتمل برنامجه على السياسة والاقتصاد كليهما .

ومن رأيه أن انتفاء التنظيم الحزبي عن الحركة الثورية - بما يعنيه ذلك من ترك العمال وحالهم - يقود الى خضوع الثورة للأيديولوجية البورجوازية وإذا كان على الحزب أن يدعن لارادة الجماهير ومشيئتها ، فعلى عاتقه يقع عبء توجيهها وقيادتها .

وناقش هذه الفكرة مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي عام ١٩٠٣ فقادته الى حملة زملائه عليه . فشبّه تروتسكى بالديكتاتور الفرنسي روسبير ، واتهمته روزا لوكسمبرج بأن سياسته تؤدي الى سيطرة اللجنة المركزية للحزب على مؤتمره الوطني ، وهاجمه بايخانوف أستاذة القديم .

وأعرب لينين في رسالته «خطوة للأمام،خطوتان

للوراء» (١٩٠٤) عن ازدرائه للديمقراطية القائمة على مبدأ حكومة يقيها الشعب . وذلك لايمانه بأن الحكم السليم لن يتم الا باخضاع الأقلية للأغلبية : أى اخضاع الجزء للكل . وأصر على اقامة جهاز مركزى يوجه الحزب ، وطالب بأن تخول اللجنة المركزية حق اقضاء العناصر غير الموثوق بها من حظيرة الحزب . واتهم معارضيه بالانتهازية وبكراهية الثورة .

والواقع ؛ تمثل هدف لينين المباشر فى أن يوجد داخل الحزب أداة قادرة على توليد ثورة . وأن تتألف هذه الأداة من عدد قليل من الأفراد يحكمهم النظام الصارم ، ولهم حق الهيمنة على الحركة الثورية باعتبارهم طليعة البروليتاريا . واعتبر الحزب أسمى أشكال التنظيم الطبقي البروليتارى . وحتم على أجهزة الدولة أن تستشير لجنة الحزب المركزية فى كل ما جل ودق من أمور الدولة .

وتضمنت هذه المبادئ لوائح الحزب على أساس الديمقراطية المركزية . بمعنى خضوع هيئاته الأدنى للأعلى ؛ تطبيقا لقرار مؤتمر الحزب السادس المنعقد فى يولية سنة ١٩١٧ .

ولقد نظم المؤتمر الثامن للحزب المنعقد عام ١٩١٩ العلاقة بين أجهزة الدولة والحزب . فأصدر قرارا جاءت به الفقرة التالية « يجب على الحزب أن يفوز لنفسه بالسيطرة الكاملة على السوفييتات والهيمنة العملية على أعمالها . ولكن على شريطة أن يقود نشاطها ولا يحل محلها » . ولقد ورد بكتاب ستالين « مشكلات اللينينية » فقرة عزاهها ستالين الى لينين مؤداها أن البروليتاريا تمارس ديكتاتوريتها من خلال السوفييتات التى يوجهها

الحزب . وأعلن - أى ستالين - فى هذا الكتاب ان الحزب يمارس ديكتاتورية البروليتاريا وأن الديكتاتورية فى جوهرها هى ديكتاتورية الطليعة أى الحزب . ونجده يعرف السوفييتات بأنها التعبير المباشر لديكتاتورية البروليتاريا ، وان كان يعترف - مثلما فعل لينين - باستحالة السوفييتات لأية مسألة سياسية أو تنظيمية هامة من غير الاهتداء بتوجيهات الحزب .

وظل لينين طوال حياته يؤمن بفكرة احتكار الحزب السلطان ، وأن الحزب لا السوفييتات (أى المجالس التى ينتخبها الشعب) هو الذى يصنع الثورة ويقود الثوار . بيد أن هذه الفكرة قد استحلت فى عهد ستالين الى أداة مكتته من فرض ديكتاتوريته العارمة وطغيانه المطلق على الشعب ، وتحول النظام الى أشبع أنواع عبادة الفرد الفانى .

٤ - لينين والحركة الشيوعية الدولية :

أنشأ لينين فى مارس سنة ١٩١٩ الدولية الثالثة . وأصر على أن تكون هيئة تسودها الروح الثورية . وتبلورت غاية لينين فى تنظيم ثورة عالمية . اذ اعتبر الثورة العالمية مسألة حياة أو موت للثورة الروسية التى كانت تعاني وقتذاك دسائس الرجعية الداخلية والامبريالية العالمية . فكان يهه كثيرا شغل الامبريالية العالمية عن روسيا بفتح جبهات ضدها فى عقر دارها .

لكن حال دون نشوب الثورة المرتجاة عدة عوامل من بينها موقف الأحزاب الشيوعية فى مختلف البلاد من الحركات الوطنية التى انبعثت فيها بعد الحرب العالمية الأولى . اذ اعتبر شيوعيو

تلك البلاد مخالفينهم فى المذهب أعداء تجب مقاومتهم ، وفسروا تعاليم لينين تفسيراً خاطئاً . ذلك لأنه قد أوصى بالتعاون مع الأحزاب البورجوازية الوطنية والاتصال بالجماهير للوصول الى الحكم . ويتم ذلك عن طريق تجذب الشيوعيين عزلتهم عن المجتمع وانخراطهم فى اتحادات العمال والنقابات والجمعيات الثقافية ، واقبالهم على تولى المناصب التى يتيسر لهم توليها . وبالجملة ، تحدى المساسة البورجوازين بأساليبهم . ومن توصياته للشيوعيين خارج روسيا أن يتفانوا فى الاخلاص للآراء الشيوعية فى الوقت الذى يمارسون كافة أنواع المناورة وأساليب المداراة ليتمكنوا من كسب الموقع تلو الموقع ، الى أن يتم لهم الوصول الى الحكم غايتهم المرتجاة ، وعندئذ يصبحون مطلقي الأيدى فى تطبيق مناهج الشيوعية المجردة . ونعت الشيوعيين الذين يعجزون عن ادراك هذه الحقيقة بقصور الفهم وعدم النضج .

ولقد أودع هذه الآراء قرارات المؤتمر الثانى للدولية الشيوعية (الكومنترن) المنعقد بموسكو عام ١٩٢٠ ، وحتى على الأحزاب الشيوعية الأخرى الرجوع الى موسكو لتلقى توجيهاتها فى هذا السبيل . وخطا المؤتمر الثانى خطوة أبعد باعتماده فكرة أطلق عليها « الجبهة المتحدة » ومدارها قيام الأحزاب الشيوعية بانشاء اتصال مع الجماهير .. اما بوساطة التعاون مع المنظمات الغيرالشيوعية أو الاتصال المباشر مع أعضاء تلك المنظمات . وعاب المؤتمر على الشيوعيين انعزاليتهم وكرهيتهم للاختلاط بمن يخالفونهم فى المبدأ وحقدتهم بالذات على أتباع الأحزاب الاشتراكية لمنافستها لهم فى كسب ود الجماهير العاملة .

كتب لينين خلال عام ١٩١٦ - أثناء اقامته بمدينة زيورخ - رسالة عنوانها « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » وانحصر هدفه العاجل في اصداره اياها التذليل على أن حرب ١٩١٤ حرب رأسمالية بالنسبة لجميع الدول التي تخوض غمارها . لكن تقوم فكرة الرسالة الأساسية على أن الامبريالية استمرار مباشر للنزعات الرأسمالية الأساسية ، في مجموعها .

وتكمن أهمية رسالة لينين في النتائج الأربع التالية التي استخلصها من دراسته للامبريالية :

الأولى - توضح الامبريالية مسألة استمرار تراكم رأس المال . اذ لا يقتصر الأمر بالدول الامبريالية على قدرتها على بيع منتجاتها الى البلاد المتخلفة ، ففي وسعها كذلك التزود منها بالمواد الأولية بأثمان رخيصة . وبفضل هذه العملية - كما يقرر ماركس - يحصل عمال الدول الامبريالية على أجور سخية - نسبيا - يتعذر حصولهم عليها تماما في ظل النظام الرأسمالي . فبفضل استغلال الشعوب المتأخرة ، ابتعثت الرأسمالية الى الوجود نوعا جديدا من البروليتاريا تم على حسابها توفير هذا التحسن في مستوى حياة عمال البلاد الامبريالية ، وغدا عمال البلاد الامبريالية يشاركون مواطنيهم الرأسماليين الامبرياليين في انتهاب البلاد المتخلفة .

ويثير هذا التخريج تساؤل الباحث المحايد عن تفسير الماركسية لارتفاع مستوى حياة عمال البلاد السكندنافية (السويد والنرويج والدنمرك) وهي بلاد بريئة من وصمة الامبريالية ، بينما يهبط مستوى عمال فرنسا وبلجيكا والبرتغال صاحبات

الماضى الاستعماري العريق عن مستوى حياة عمال البلاد السكندنافية .

ويطلق لينين على عمال البلاد الامبريالية « الارستقراطية العمالية » . ويقرر بأنهم عمال مرتشون ، لأن الرأسمالية قد اشترت ضمائرهم بالأموال التي سلبتها من المستعمرات .

الثانية - تضم الامبريالية بين طياتها تناقضات داخلية من شأنها التعجيل بانهايار الرأسمالية . ذلك لأنها تتضمن صراعا في سبيل حيازة الأسواق ، تستغل حدته يوما بعد آخر . ويعنى هذا انقسام العالم الى أقلية مستغلة وأكثرية مستغلة .

وأن التغير الذي تحدثه الامبريالية في القوى الانتاجية ، ينعكس بلا مراء على العلاقات الانتاجية . وتتخذ البروليتاريا بمقتضاه - أى التغير - طابعا جديدا . فبفضل هذا التغير ، تستوعب البروليتاريا في البلاد الامبريالية الجماهير الكادحة في البلاد المتخلفة التي يستغلها الامبرياليون . هنا لا ينحصر كفاح البروليتاريا في البلاد الامبريالية ضد مستغليها في وطنها ، بل يشاركهم في عملية الكفاح ضد المستغلين : تلك الجماهير الكادحة التي يستعبدها - كذلك - هؤلاء الامبرياليون . ويقتضى هذا - كما يقول لينين - تأليف جبهة مشتركة تضم شعوب المستغلين وشعوب المستغلين ، على السواء .. ويصبح كل بلد يخضع للاستغلال الرأسمالي هدفا صالحا للثورة دون اعتبار لمرحلة الارتقاء الصناعي ، أى بصرف النظر عن توافر الشروط اللازمة لقيامه بثورة بروليتارية أصيلة : توافر الوعي الطبقي لعمال الصناعة .

الثالثة - تزيد الامبريالية من حدة فعل قانون « الارتقاء الغير المتكافئ » . ففي ظل الرأسمالية

وعلى أساس هذه النظرية ، أسس ستالين - فيما بعد - مذهبه عن امكان قيام الاشتراكية فى بلد واحد . وأثر هذا المذهب فى خط سير الاشتراكية الدولية تأثيرا عارما . ذلك لأن الاشتراكية قد باتت وسيلة لا غاية ، وسيلة تتبلور فى تعبئة موارد البلد المادية والبشرية لانجاز غايات هذا البلد القومية وأهدافها . وتحلت الدولية الشيوعية بعدما تطورت فى عهد ستالين الى ذيل للسياسة الخارجية السوفيتية .

وهذا - لعمري - يفسر اقبال البلاد المتخلفة على اعتناق الاشتراكية . وهذا تقيض نظرية ماركس التى تنادى بقيام الاشتراكية فى البلاد الراقية صناعيا التى يستمتع عمالها بمستوى رفيع من الوعى الطبقي . وبهذا أثبتت الأيام أن القومية ماتزال أقوى من العقيدة - أية عقيدة - وباتت القومية تستخدم العقيدة لانجاز أغراضها - أى أغراض القومية - التى ترسمها الصفوة المثقفة .

٦ - فكرة الدولة فى الماركسية واللينينية :

يمجد هيجل (أستاذ ماركس الروحي) الدولة فيقول « انها الفكرة الالهية تتمثل على الأرض . ان واجب الفرد الاسمى أن يكون عضوا فى الدولة » .. ويرى ماركس أن كافة الجماعات المتمدينة تأخذ شكل الدولة . ذلك لأنها تضم بين ظهرانيها طبقات اجتماعية متنازعة . ووظيفة الدولة تسوية خلافات هذه الطبقات لمصلحة الطبقة المسيطرة أو الحاكمة التى تهيمن على أداة الازمام فى الدولة وتستخدمها لتأمين سيطرة الطبقة الحاكمة وكفالة تنفيذ ارادتها .

فالدولة عند ماركس ومريديه قد نشأت مع نشوء الطبقات . ففي المجتمعات البدائية لم توجد

التي تعنى بتصدير السلع المصنوعة أعظم من عنايتها بتصدير رأس المال ، أمكن لبعض البلاد الارتقاء فى سرعة أعظم كثيرا من ارتقاء البعض الآخر ، لكن لبثت طاقتها - النسبية - على حالها بوجه عام . ويختلف حال الرأسمالية الصناعية عن الرأسمالية المالية (أى التى تعنى خاصة بتصدير رؤوس الأموال) ، ففي وسع الرأسماليين فيها اجتناء أرباح طائلة ، لا نتيجة لتصدير السلع التى يضعها عمالها ، ولكن نتيجة تصدير رؤوس أموال تستخدم فى اقامة مشروعات فى البلاد المتخلفة أو قروض تبذل لحكومتها أو لطبقتها الرأسمالية . وهنا تنبعث منافسة بين الدول المصدرة للسلع والدول المصدرة لرؤوس الأموال . وينشأ عن المنافسة انتفاء الثبات والاستقرار فى المعسكر الرأسمالى ، فيضطرب السلام العالمى .

الرابعة - الحرب حصيلة النظام الامبريالى .

فما الحروب العالمية الا نتيجة حتمية لصراع الامبرياليين على امتلاك مستعمرات لتصريف منتجات بلادهم الصناعية الفائضة عن حاجة الأسواق المحلية .. فيصبح على الشيوعية - والحالة هذه - واجب مقاومة الامبريالية حفاظا على السلام العالمى . ويتيسر ذلك بالعمل الدائب على رفع مستوى الوعى الطبقي للجماهير . ومن الناحية الأخرى ، اضعاف النظام الرأسمالى عن طريق تأييد حركات التحرير التى تنبعث من أرجاء البلاد المتخلفة .

وقد بث لينين الاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتى قد يقع يوما ما فريسة العدوان الامبريالى . وهذا ما أثبتت الأيام صدقه فى الحرب العالمية الثانية . ويستخلص لينين من مناقشة موضوع الاستعمار الى التنبؤ بفوز الاشتراكية تدريجيا فى كل بلد من بلاد العالم .

الاقتصادية - والحالة هذه - هي التي تحدد التشريع وهي التي تحدد التشريع وهي صدى مصلحة الطبقة الحاكمة .

ويرى لينين قيام دولة قوية تتعهد إعادة تنظيم جهاز الدولة . والدولة في المرحلة الأولى للشيوعية - ويسمها لينين الاشتراكية - تحمي الملكية العامة لأدوات الإنتاج . وفي الوقت نفسه تكفل المساواة في العمل وفي توزيع المنتجات . ولكن الدولة « تزدى » عندما لا يوجد رأسماليون وطبقة ، وهذه هي مرحلة الشيوعية العليا . وتزول الدولة - كما يقول لينين - عندما يعتاد الناس ملاحظة القواعد الأساسية للحياة الاجتماعية وعندما يغدو عملهم منتجا الى درجة تدفعهم للعمل مختارين وفقا لكفائتهم .. كما يتطلب الحال توافر شرط أساسي آخر : زوال الرأسمالية .

ولقد وردت تلك الآراء في كتاب لينين « الدولة والثورة » وكتبه عام ١٩١٧ ونشره عام ١٩١٨ أعظم كتب لينين وأبعدها تأثيرا من الناحية السياسية . وكان لينين وقت كتابته مختفيا قرب الحدود الفنلندية نظرا لقرار حكومة كيرنسكى القبض عليه .

ويتألف كتاب « الدولة والثورة » من ستة فصول . وكان يعتزم إضافة فصل سابع عن ثورتى ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، لولا أنه علم بثورة ٧ نوفمبر ١٩١٧ فعلق على الحدث بقوله « لأن تعيش في غمار تجربة الثورة أفيد من الكتابة عنها » .

ولهذا الكتاب أهمية قصوى في الفلسفة الماركسية والشيوعية .

فان ماركس وانجلز - متأثرين بآراء القرن التاسع عشر الليبرالية - قد أغفلا عامل السلطة السياسية .

الدولة لا تتقاء تعدد الطبقات فيها ، فكان أن انعدمت الحاجة الى وجود قوة ملزمة تحمي المصالح الطبقيّة . فكان أفراد المجتمع ينتظمون في قبائل ، وكانت الأسرة وحدة القبيلة وتتكون من جملة عائلات ، وكان أفراد القبيلة يجتمعون لمناقشة المسائل الهامة تسودهم روح الديمقراطية . ولم تكن ثمة حاجة لوجود القوة الملزمة (أى الدولة) . بيد أن تطور الحياة الاقتصادية الناجم عن ارتفاع شأن الانسان ، أضفى أهمية على الملكية الخاصة لأدوات الصيد وأدوات الزينة والسكن وغيرها . وارتقت الحياة الاقتصادية ، فعظمت أهمية الملكية الخاصة ، وانتشرت حركة تبادل السلع المختلفة ، فنشأت الأسواق وحولها نشأت المدن وبها قامت الصناعة . واقتضى تقسيم العمل على أوجه الإنتاج المختلفة - فضلا عن أهمية الملكية - نشوء الطبقات ، فتطلب الأمر وجود سلطة عليا لحماية مصالح الطبقة التي أتاح لها تطور الإنتاج تفوقا على غيرها .

وتعتبر الماركسية القانون - في العصر الحديث - صادرا عن الدولة ومنها يتخذ مظاهره العامة . ولا تعترف أبدا بالقانون الطبيعي . فالقانون - مثل الدولة - ظاهرة تاريخية تقوم على أسس المجتمع الاقتصادية ، ويجب أن تعبر نصوصه عن أسس العلاقات الاجتماعية نفسها . ويؤكد الماركسيون استحالة صيرورة القانون القائم في مجتمع ، أعلى من الكيان الاقتصادي لهذا المجتمع وأعظم من النهضة الثقافية الناتجة عنه . والدولة - التي منها ينبعث القانون - ناتج صراع الطبقات ، وتسيطر عليها تلك الطبقات المسؤولة عن الإنتاج الزراعى ، وبالتالي ، ينحو القانون الى خدمة المصالح الاقتصادية لهذه الطبقات وتعزيزها . فالأسس

أما لينين فقد تقبل - بالتام - النظرية الماركسية القائلة بأن الدولة الانتقالية - التي تقع بين الرأسمالية والشيوعية - لا يمكن الا أن تكون ديكتاتورية البروليتاريا الثورية . لكنه اعترض على الفكرة القائلة بتلاؤم الرأسمالية والديمقراطية . اذ قرر بأن الديمقراطية - فى ظل الرأسمالية - ديمقراطية للقلّة تستمتع بشمارها الطبقات المالكة ، أى انها ديمقراطية للأغنياء .

ثم يصف لينين الأساليب التي تستخدمها الرأسمالية للحفاظ على وجودها فى الحكم مقتبسا عبارة « البيان الشيوعى » القائلة بأن السلطة التنفيذية للدولة الحديثة هى مجرد لجنة تدير دفة الشؤون العامة للبورجوازية بأسرها .

ويرى لينين وراء شكليات الديمقراطية الرأسمالية ما يطلق عليها «ديكتاتورية البورجوازية» كذلك فكرة انجاز عملية التحول من الرأسمالية الى الشيوعية مباشرة وبلا تعنت أو ارهاق . ونجده يقول « يريد العلماء الليبراليون والانتهازيون من البورجوازية الصغيرة أن نعتقد بإمكان ذلك (أى التحول السلمى من الرأسمالية الى الشيوعية) .. لكن التحول لن يتم الا عن طريق ديكتاتورية البروليتاريا ، اذ لن يمكن تحطيم مقاومة المستغلين الرأسماليين الا بهذه الوسيلة » .

فعلى عكس ماركس الذى ارتأى امكانية التحول الاجتماعى - سلميا من الرأسمالية الى الاشتراكية فى البلاد المتقدمة سياسيا مثل انجلترا والولايات المتحدة وهولندا ، نادى لينين عام ١٩١٧ بأن الاستثناء الذى وضعه ماركس لم يعد صحيحا، اذ نشأت فى هذه البلاد نظم بيروقراطية يخضع لها كل شىء وتطأ بأقدامها كل اعتبار .

ويعتقد لينين ببقاء الدولة فى ابان المرحلة الانتقالية بين الرأسمالية والشيوعية . ويرر فكرته بضرورة توفير جهاز يتولى قمع المستغلين الرأسماليين . لكن يشير لينين الى ان الدولة تبدأ بالفعل - ابان هذه المرحلة - فى أن تذوى . وذلك لأن مهمة الأكثرية (أى البروليتاريا المنتصرة) بالنسبة لقمع الأقلية (وتتمثل فى الرأسماليين المنهزمين) تختلف مقدارا ونوعا عن الدولة الرأسمالية السابقة التي كانت الأقلية فيها (أى الرأسماليون) تخضع لاستغلالها أكثرية المجتمع .

فاذا ماتوطدت الشيوعية ، تنتفى حاجة المجتمع كلية لوجود الدولة . اذ لن يكون هناك من يتطلب الأمر سحقه وقمعه ، أى لن تكون هناك طبقة معادية تبذل الجهود للقضاء عليها . فبقيام النظام الشيوعى يتم استئصال الطبقات ، فيصبح لا مناص من ذواء الدولة . وهنا كما يقول لينين - يحظى الجميع بحرية حقيقية ، واذا توافرت الحرية ، لن تكون هناك دولة .

ولم يحدد لينين الفترة التي يستغرقها الانتقال من المرحلة الدنيا للمجتمع الشيوعى (أى ديكتاتورية البروليتاريا) الى مرحلتها العليا (مرحلة ذواء الدولة) . لكنه يصف هذه المرحلة بقوله « تذوى الدولة تماما وقتما يتيسر للمجتمع تطبيق القاعدة » من كل وفقا لمقدرته ، والى كل وفقا لاحتياجاته . ويعنى بقوله هذا : وقتما يعتاد الناس اتباع قواعد الحياة الاجتماعية الجهورية وعندما يبلغ عملهم درجة رفيعة من الكفاية الانتاجية بحيث يندفعون مختارين للعمل كل وفقا لمقدرته .

وينكر لينين - مثلما أنكر كارل ماركس -

الصفة الطباوية على مجتمع تنتفى منه أداة القهر والالزام (وتمثلها الدولة) .

ومع ذلك ، تتفق الماركسية مع كل من الدين والفوضوية ونزعة المسالمة ، تتفق فى الاعتقاد بتسامى الانسان حتى أنه سيأتى عليه يوم من الأيام تنتفى فيه الحاجة الى قوة التأديب والتقويم الحكومية .

وبعدما تسلم لينين زمام الحكم ألقى على المؤتمر الأول للدولية الشيوعية المنعقد بموسكو فى ٤ مارس ١٩١٩ تقريراً عنوانه « الديمقراطية البورجوازية وديكتاتورية البروليتاريا » ردد فيه إيمانه بعدم وجود « ديمقراطية بوجه عام ، ولا ديكتاتورية بوجه عام » . ثم قرر بأن جميع الديمقراطيات البورجوازية - فى الواقع - ديكتاتوريات يمارسها الرأسماليون ضد جماهير الشعب المستقلة . وهاجم فى ضراوة بالغة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين يؤمنون بوجود أسلوب وسط بين الديكتاتورية الرأسمالية والديكتاتورية البروليتارية . ومن أقواله فى هذا الصدد « ان جميع الأحلام عن نوع من الأسلوب الثالث ، ما هى الا نحب البورجوازية الصغيرة ونواحقها . فليس ثمة سبيل غير ديكتاتورية البروليتاريا طالما ظلت الرأسمالية قائمة . فان تطور الديمقراطية لا يضعف من الصراع الطبقي ، بل انه يزيده حدة .

وفى المؤتمر الثانى للدولية الشيوعية المنعقد فى ٤ يولية سنة ١٩٢٠ ، القى لينين رسالة عنوانها « المهام الرئيسية للمؤتمر الثانى للدولية الشيوعية أوضح فيها إيمانه بحق الأقلية فى تزعم الأغلبية وحكمها ، حتى بعدما تستتب الأمور لديكتاتورية

البروليتاريا . ويسوق لينين للتدليل على صحة رأيه حجة مبناها أنه فى ظل ظروف التسلط والاسترقاق الرأسماليين ، تعجز جمهرة العمال عن تحصيل المعتقدات الاشتراكية للأسباب التالية :

الأول - هيمنة الرأسماليين على وسائط الفكر والرأى .

الثانى - صفاء نية العمال . وتدفعهم نيتهم الى تصديق جميع ما يسمعونه وأخذة قضية مسلمة .

الثالث - سطوة الرأسماليين . الأمر الذى يبعث الخوف والرهبنة فى نفوس العمال . فينساقون الى تصديق الرأسماليين لا شعوريا .

ويخلص لينين من رأيه هذا الى تقرير أن جمهرة العمال تستطيع احراز الأيدولوجية البروليتارية السديدة فى حالة توفيق طليعة البروليتاريا - ممثلة فى الحزب الشيوعى - فى اقتلاع المستغلين الرأسماليين عن مراكزهم وازالة النظم الرأسمالية من الميدان . فبفضل تغيير ثورى من هذا القبيل - كما يبين لينين - يتأتى للعمال التخلص من الشقاق والأناية ، ومن مظاهر الضعف والرزايا التى تولدها الملكية الخاصة .

وظاهر مما قدمناها ؛ اختلاف فكرة لينين اختلافا أساسيا عن أفكار الأحزاب الاشتراكية . إذ تؤمن تلك الأحزاب بإمكانية تسلم الحكم فى بلادنا عن طريق النظم البرلمانية القائمة . ويستنكر لينين هذا الرأى فيقرر بأن أغلبية العمال تعجز عن تخلص نفسها من ربقة العقلية الرأسمالية ، فليس ثمة سوى أقلية من الثورين ذوى الوعى الطبقي - أى الطليعة الشيوعية للبروليتاريا - فى وسعها تحليل الموقف تحليلا

العامة للشعب العامل (البروليتاريا) - فى عرف لينين - ليست هى ما تراه بالفعل أغلبية العاملين ، ولكن ماتراه صوابا لو قيض لها الأمام بالتحليل الماركسى « السليم » للتطور الاجتماعى والاقتصادى .

وينصح لينين فى كتاب « الدولة والثورة » الشيوعيين بتكوين خلايا فى جميع التنظيمات السياسية والصناعية والعسكرية والتعاونية والتعليمية والرياضية .. التى يتصادف وجودهم فيها . وذلك لاعتقاده ، بأن الشيوعيين قد لا يتيسر لهم بلوغ الحكم عن طريق المناقشة المفتوحة والدعاية وتحدد موقف الخلايا من السرية والعلانية على هدى الظروف التى يجد الشيوعيون أنفسهم فى غمارها . ويوجب ارتباط أوجه نشاط الخلايا الشيوعية بمركز الحزب ارتباطا وثيقا ، وأن تلتزم جانب الحذر والحيلة فى جميع الأحوال ، وأن لا تغتر بما قد تبديه بعض الحكومات الرأسمالية من روح ليبرالية . وينصح الشيوعيين فى البلاد الرأسمالية باقتناص الفرص التى تتاح لهم واستنفاد الأساليب المشروعة لتنفيذ أغراضهم . ومن قبل هذا : تأليف منظمات وجماعات ترضى عنها الحكومة القائمة وتبعد عنهم عدوانها ، ويستطيعون فى ظلها تنفيذ أغراضهم فى الوثوب الى الحكم عن طريق الثورة .

صحيحا وأن ترسم خطة سديدة . وينبنى على هذا الرأى ، ضرورة انبعاث ديكتاتورية بروليتارية تتولى حماية الشيوعية من خطر الرأسمالية المنتكسة . وبموجب تطبيق فكرة البروليتاريا ، لا مناص من أن تفرض الطليعة الشيوعية - بدورها - ديكتاتوريتها على البروليتاريا . وتظل ديكتاتورية الحزب - وتمثل الطليعة الشيوعية - قائمة الى أن يتحقق لأغلبية العاملين التخلص من المنحى التفكيرى الرأسمالى .

وأساس منطق لينين لفرض ديكتاتورية الحزب على جمهرة الشعب اعتقاده العميق - كما ذكرنا من قبل - بأن الجمهرة الشعبية عاجزة عن الادراك والتصرف السليمين . وأن حيازة الطليعة الشيوعية للمعرفة السليمة لقوانين التاريخ والمجتمع ، تمنحها حق قيادة الجماهير ، وتفرض عليها واجب ارشادها الى عالم جديد .

فكان لينين يرى أن ادراك الشيوعيين للتحليل العلمى للمجتمع ، يمثل الارادة العامة للشعب العامل سواء أرادت جمهرته أم لم ترد ذلك . ذلك لأن سريان تأثيرات المجتمع الرأسمالى - الذى انضوى الشعب العامل تحت لوائه طويلا - يجرده من صلاحية التفكير والتصرف السليمين . فالارادة

تأليف لينين

أن نستعيد الى الوجود تعاليم ماركس الصحيحة عن الدولة .

فالفكرة الأساسية للماركسية عن مغزى الدولة ودورها التاريخي ، مدارها أن الدولة حصيلية المنازعات الطبقة المزممة ومظهرها ، فالدولة تنشأ وقتما تستحيل تسوية المنازعات الطبقة تسوية فعالة وعلى العكس ، يدل وجود الدولة على أن المنازعات الطبقة غير قابلة للتسوية .

وهذه النقطة جوهرية وعلى أقصى جانب من الأهمية . اذ يتخذها المنحرفون قاعدة لتشويه الماركسية من ناحيتين :

فمن ناحية ، نجد البورجوازية الصغيرة وهي تعاني ضغط الوقائع التاريخية التي تجبرها على تقبل فكرة أن الدولة توجد في خضم المنازعات الطبقة والصراع الطبقي ، تنادي بأن الدولة انما توجد للتوفيق بين الطبقات . فالدولة - مصداقاً للرأى ماركس - لا يمكن أن تبرز الى الوجود أو تظل قائمة ، ان أمكن التصالح بين الطبقات ، كما يرى ماركس الدولة وسيلة السيطرة الطبقة : أى وسيلة هيمنة طبقة على أخرى وتهدف لكفالة نظام المشرعون عن طريق تلطيفهم حدة اصطدامات الطبقات احداها بالأخرى أو بعضها بالبعض الآخر . لكن ساسة البورجوازية الصغيرة يرون فى رأى ماركس هذا ، تأييداً لفكرتهم القائلة بأنه يقصد من اقرار النظام تصالح الطبقات ، ولا يعنى جور طبقة على أخرى . وهم يدعون بأن التلطيف من حدة الاصطدام بين الطبقات ، لا يعنى

١ - الدولة باعتبارها حصيلية الخلافات الطبقة المزممة

ان ما يحدث الآن - على طول المدى - هو ما طرأ فيما مضى على مذاهب المفكرين الثوريين الآخرين وزعماء الطبقات المضطهدة التي تكافح نبيل التحرر . فلقد واجه الثوار العظام من الطبقات الجائرة المتعسفة ، أقصى ضروب الاضطهاد . فانكرت دعواتهم الاصلاحية ووقفت تجاهها موقفاً وحشياً . وتعرض هؤلاء المصلحون لحملات الكراهية والأكاذيب العاتية الظالمة . ويتغير الوضع بعد وفاتهم - اذ تبذل المحاولات لتجعل منهم قديسين وصوراً طاهرة أليفة ، وتحاط أسماؤهم بهالة تبث الغراء والرجاء فى نفوس الطبقات المضطهدة . وتبتغى الطبقة الجائرة من وراء ذلك ، التغرير بالعناصر المضطهدة - من ناحية - ومن الناحية الأخرى ، تجريد النظريات الثورية من جوهرها الحقيقى والقضاء على حيوية آراء هؤلاء المصلحين الثوريين ، وها هنا ينثلم سلاح الثورة ويغدو كليلاً وفى الوقت الحاضر ، يتم داخل الحركة العمالية تعاون البورجوازية والانتهازيين لتزييف الماركسية . ويتم ذلك عن طريق اغفال الجانب الثورى من تعاليم الحركة العمالية وطمس روحها الثورية ، فانهم يبرزون ما يتفق مع فكرة البورجوازية ، ويسجدون ما يبدو مقبولاً لديها فان جميع المتزمتين الاجتماعيين قد أصبحوا ماركسيين .

ففى ظل هذه الظروف التي تبذل لتشويه الماركسية وتحريفها ، يصبح علينا فى المكان الأول

تجريد الطبقات المضطهدة من وسائل وطرائق محددة
تتيح لها الكفاح ضد الجائرين وخلق سيطرتهم
عنها ، بل تعنى المصالحة بين الظالمين والمظلومين .

٣ - هيئات خاصة من الرجال المسلحين والسجون

... الخ

يقرر انجلز أن السمة المميزة الأولى للدولة ،
تجميع رعاياها على أساس اقليمي . وقد تم ذلك
بعد كفاح مديد طويل الأمد ضد الشكل القبائلي
القديم أو المجتمع الاقطاعي ، ويتسم المجتمع
الاقطاعي بانبعث قوة يعهد اليها حاكم هذا المجتمع
أمر اجبار أفراد المجتمع على تنفيذ رغباته واطاعة
مشيئته . وهذا تطور طبيعي بعدما انقسم المجتمع
الى طبقات . وتتوافر هذه السلطة العامة في كل
دولة . ولا تتألف من الرجال المسلحين فحسب ،
لكن تتألف كذلك من جميع وسائل القمع وأدوات
كبح جماح الجماهير . وهذا عكس الحاصل في النظام
القبلي حيث يتسلح جميع أفراد العائلة جميعا .

وهذه القوة - التي يطلق عليها اصطلاحا اسم
دولة - قد انبعثت من المجتمع . الا أنها نفسها في
مركز أعلى منه ، بل انها لتتباعده عنه وتنفصل أكثر
فأكثر . وقوام هذه القوة هيئات خاصة من الأفراد
المسلحين ، تحت تصرفهم السجون وما أشبه
من وسائل الردع والارهاب . فالجيش والبوليس
العاملين هما الأداتان الرئيسيتان لسلطة الدولة .

ولأن المجتمع قد دخل مرحلة الحضارة ، فلا
محيص عن انقسامه الى طبقات متعادية لا يمكن
التوفيق بينها . فلو تسلح كل فرد في مثل هذا
المجتمع ، لنشبت حرب أهلية تدمر المجتمع وتقضى
عليه ، فكان أن انبعثت الدولة الى الوجود : قوة
في شكل هيئات خاصة تضم رجالا مسلحين ، وهذا

يفسر كيف أنه عندما توفق جماعة في السيطرة
على المجتمع - سواء عن طريق ثورة أو حرب - تعمد
قبل كل شيء الى اعادة تنظيم الهيئات التي تضم
قوات البطش والارغام ، وذلك لتخدم أغراضها .
فلا بدع والحالة هذه ، أن تعمد الطبقة المضطهدة

- فور توفيقها الى تسلم زمام الحكم - الى اعادة
تنظيم هيئات البوليس والجيش وملحقاتها بحيث
تخدم أهدافها ، لا أهداف الطبقة المستغلة الظالمة.

- الدولة كأداة لاستغلال الطبقة المضطهدة

يقتضى الاحتفاظ بقوة عاملة ذات طابع خاص
وتعلو فوق المجتمع ، فرض الضرائب واقتراض
الديون ، وسن تشريعات خاصة تضفي على
السلطة الحرمة والقداسة .

فما الذي يجعل موظفي الدولة فوق المجتمع ؟
يقول انجلز :

« الدولة النيابية الحديثة أداة استغلال العمل
الأجير باستخدام رأس المال .. على أن ثمة فترات
استثنائية توشك فيها الطبقات المتصارعة أن تبلغ
مرتبة التوازن . وهاهنا تقوم سلطة الدولة بدور
الحكم ، اذ تغدو مستقلة عن المتصارعين » .

وتلك كانت حالة الملكيات المطلقة ابان القرنين
السابع عشر والثامن عشر ، وحالة الحكم البونابرتي
في فرنسا خلال عهدى الامبراطوريتين الأولى
والثانية ، وسلطة الدولة الألمانية في عهد بسمارك .

ويستطرد انجلز قائلاً :

« في الجمهورية الديمقراطية ، يسوس المال
سلطانه بطريق غير مباشر ، ولكن بفعالية أعظم .
ويتم ذلك عن طريق الافساد المباشر للرسميين (كما

هو الحال فى أمريكا) وبتحالف الحكومة مع سوق الأوراق المالية (كما هو الحال فى فرنسا وأمريكا) .

وفى الوقت الحاضر ، أمكن الامبريالية والبنوك المسيطرة على الحياة الاقتصادية أن تجعل من شئون المال فنا رفيعا يحى الثورة ويؤكد سطوتها العارمة فى البلاد الديمقراطية . فأصبحت الجمهورية الديمقراطية حصنا سياسيا منيعا يصون المصالح الرأسمالية ويحافظ على سيادة البورجوازية .

ويجب علينا أن نلاحظ أن انجلز قد اعتبر التصويت العام أداة للتسلط البورجوازي . فان التصويت العام - على النسق المشاهد فى الدول الأخرى - لا يمكن أن يعبر عن ارادة جمهرة الشعب من الكادحين ولن يضمن فيض مشيئتهم على البورجوازية المسيطرة .

٢ - ذواء الدولة :

يقرر انجلز فى كتابه « ضد ديهرنج »

Anti-Drinking

« تضع البروليتاريا يدها على سلطات الدولة . ثم تتولى تحويل وسائل الانتاج الى ملكية الدولة . وبقيامها بهذا الأمر ، تنهى نفسها كبروليتاريا وتضع حدا للاختلافات الطبقية وللصراع الطبقي ، ذلك لأن المجتمع القائم على الصراع الطبقي قد مست حاجته للدولة ، أى لتنظيم للطبقة المستغلة فى كل مرحلة للحفاظ على الظروف الخارجية التى يتم فى ظلها الانتاج . ومدار هذه الظروف ، تولى الدولة الجور على العاملين (سواء ابا ن نظام الرق أو الاقطاع أو الرأسمالية) . فما الدولة الا المثل الرسمى

للمجتمع فى مجموعه . انها تضمين المجتمع فى جماعة منظورة . الا أنها دولة المواطنين مالكي للارقاء (فى نظام الرق) وفى العصور الوسطى دولة تمثل الاشراف الاقطاعيين ، وفى عصرنا الحاضر دولة بورجوازية . وعندما تصبح الدولة فى نهاية المطاف تمثل حقيقة المجتمع فى مجموعه ، تتحول الى غير ذى موضوع بالنسبة للمجتمع . اذ يغدو تدخل سلطان الدولة فى العلاقات الاجتماعية أمرا لاضرورة له بعد زوال طبقة المجتمع المسيطرة التى اتجهت الجهود لقمع سيطرتها . وتحل ادارة الأشياء وادارة عمليات الانتاج محل الحكومة . والدولة لاتلغى ، لكنها تذوى .

ويدون أن نرتكب خطأ ، يمكن القول بالنسبة - لمناقشة انجلز الحافلة بالآراء ، أن رأيا واحدا منها قد أصبح جزءا لا يتجزأ من الفكر الاشتراكي فى أوساط الأحزاب الاشتراكية المعاصرة . ذلك هو فكرة ذواء الدولة عوضا عن انقائها كما ينادى الفوضويون . وان تلك الأحزاب بمقالتها هذه تحط من قدر الماركسية اذ تدمغها بصفة الاتهازية . اذ تعنى فكرة ذواء الدولة ، تقبل الاصلاح التدريجى والتحول البطيء .

وشجب التغيرات الثورية ذات الطابع الديناميكي والقضاء بالتالى على اتجاهات المجتمع صوب التغير السريع الفعال ، وهو سمة الثورة وظابعها المميز . وهذا رأى يتفق تماما مع صالح البورجوازية .

والحق : أن الأحزاب الاشتراكية قد أساءت فهم عبارات انجلز . فانه يعنى ذواء الدولة بعد توفيق ثورة البروليتاريا فى سحق مستغليها واقامة

دولتها على أنقاض الدولة الطبقية القديمة ، أى أن ما يدوى هو دولة البروليتاريا بعدما توفق فى السيطرة على مواد الاتاج ومصادر الرزق بفضل ثورتها الاشتراكية .

فلن تقوم للدولة البروليتارية قائمة بدون اندلاع ثورة عارمة تقتلع البورجوازية عن سلطانها . ولن

تحل محلها دولة بروليتارية(ديكتاتورية البروليتاريا) تقوم بفضل عملية « ذواء الدولة » وبدون البطش بالبورجوازية واستخدام وسائل العنف ضد المستغلين ، يستحيل القضاء على دولة البورجوازية وهاهنا تصح فكرة «ذواء الدولة»

فؤاد محمد شبل